

# القيم الحضارية في رسالة خير البشرية (1) القيم العلمية

محمد بن عبدالله بن صالح السحيم

المقدمة:

الحمد لله الذي ملأ قلوب أوليائه بمحبته وتعظيمه، وأفرغ قلوب من سواهم من معرفته وتقديره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله تأله القلوب محبة وإجلالاً وتعظيماً، وتلجأ إليه النفوس رغبة ورهبة، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخليته وصفيه وأمينه على وحيه، أرسله الله على حين فترة من الرسل لينقذ البشرية من عبودية الشهوات والهوى، ويصلها بخالق الأرض والسماء، فكان إماماً للسالكين، وكانت رسالته رحمة وهداية للخلق أجمعين وبشارة للعالمين وخلاصاً للمضطهدين، فصلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد:

فإن الباحث حين ينظر في تاريخ الحضارات ويتأمل المكان الذي انطلقت منه هذه الحضارات يجد أن القاسم المشترك بينها كلها أنها قامت على شواطئ الأنهار، أو سواحل البحار، فلا تقوم الحضارات إلا قريباً من مصادر الماء، ولكن حينما ننظر في الحضارة الإسلامية نجد أنها انطلقت من الجزيرة العربية وهي وإد غير ذي زرع، فلا ماء ولا نهر، ولكن كان معها ما هو خير من الماء، إنه الوحي الإلهي، وهذا الوحي هو بمثابة روح للحياة وللأحياء، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ (1).

ولذا كانت الرسالة الخاتمة التي جاء بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مشتملة على كل ما يحتاج

إليه الجنس البشري للتعبّد بدين راشد، وإقامة حضارة متكاملة - من عقائد وأحكام وقيم ومبادئ ومثُل، فكانت هذه الرسالة الإلهية أساساً ومنطلقاً ومرشداً للحضارة الإنسانية الخاتمة، ومما يذكر للحضارة الإسلامية أنها لم تُقْصِ الحضارات السابقة، بل استوعبتها وأخذت ما فيها من محاسن، وزادت عليها، وبيّنت ما فيها من مثالب، وعجزت الفلسفات التالية والأديان كافة أن تقضي عليها أو تقصّيها، وحققت حضارتنا انتصارات عظيمة، وقدمت للبشرية مكاسب عديدة في زمن قصير، يشهد لها بذلك المخالفون لها، يقول جورج بوش الجد 1796-1859م أستاذ اللغة العبرية والآداب الشرقية في جامعة نيويورك: "لقد وضع (أي محمد صلى الله عليه وسلم) أساس إمبراطورية<sup>(2)</sup> استطاعت في ظرف ثمانين سنة فقط أن تبسط سلطانها على ممالك وبلاد أكثر وأوسع مما استطاعته روما في ثمان مئة سنة، وتزداد دهشتنا أكثر وأكثر إذا تركنا نجاحه السياسي وتحدثنا عن صعود دينه وانتشاره السريع واستمراره ورسوخه الدائم. والحقيقة أن ما حققه نبي الإسلام والإسلام لا يمكن تفسيره إلا بأن الله كان يخصصها برعاية خاصة، فالنجاح الذي حققه محمد صلى الله عليه وسلم لا يتناسب مع إمكاناته، ولا يمكن تفسيره بحسابات بشرية معقولة. لا مناص إذن من القول إنه كان يعمل في ظل حماية الله ورعايته، لا تفسير غير هذا لتفسير هذه الإنجازات ذات النتائج الباهرة"<sup>(3)</sup>.

وحيثما تستعرض أصول المقومات التي يتطلبها بناء أي حضارة راشدة تجد أنها لا بد لها من مقومات أساسية وأخرى مساعدة، ومن أبرز هذه المقومات وأعظمها مما يتوقف عليه بناء الحضارات هي: أولاً: دين صحيح يحقق للفرد عبوديةً للروح، واستقامةً للبدن، وصالحاً للمجتمع، وسلاماً للمنهج، ويرشده إلى الوسائل الصحيحة، ويضمن له سعادة الدارين. ثانياً: علم صحيح يكشف له الحقائق الغائبة، ويدله على الغايات الصحيحة، ويخبره بحقيقة نفسه، ويمده بالمنهج العلمي الذي إذا سلكه أثمر له النتائج الهادفة، وأراحه من عناء طلب المستحيل، واختصر له الزمن في البحث عن حقائق القرون الأولى التي كشف القرآن حقيقة مسيرتها وبين نهايتها، وأن يشتغل في مجال هذا العلم الصحيح ليثمر له نتائج صائبة تنأى به عن النقائص الجدلية.

2- لا يقر المؤلف على تسمية الإسلام بالإمبراطورية، فالإسلام دين وحسب.

3- جورج بوش، محمد صلى الله عليه وسلم مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين، ترجمة:

عبدالرحمن عبدالله الشيخ، دار المريخ، الرياض، ط 1، 1425هـ، ص 353.

ثالثاً: عدل تام يتساوى فيه الرئيس والمرؤوس، والغني والفقير، وذو الشرف والوضيع، عدل تام يناله العدو والصديق، ويحكم من خلاله على الناس كافة من غير نظر إلى معايير زائفة أو متغيرة بحسب صاحب الحق.

رابعاً: غايات واضحة وسليمة ومحددة، تريح القلب من الحيرة، وتجعل النفس تنفعل من أجل سمو الغاية وسلامة الوسيلة، وتكشف للنفس غياهب المستقبل، فيعمل الإنسان على نور من ربه، يعرف بدايته ونهايته، ويوقن بنجرائه وحسابه، ويتفانى من أجل مستقبل جماعي مشترك.

خامساً: حب صادق يلتئم من خلاله شمل المجتمع، وتلتقي بسببه القلوب على الصدق والحب والإيثار، وتتعاون النفوس كأنها أعضاء في جسد واحد، إذا اشتكى منها عضو تداعى له بقیة الأعضاء بالسهر والحمى، كل فرد لا يرى أنه أحق بدرهمه وديناره من أخيه وجاره.

وهذه الأصول قد جاء بها الإسلام وأكدها، وحثّ على ما يدعو إليها، وحذر مما يعارضها أو يشينها أو يقضي عليها، كما ستره في ثنايا هذا البحث إن شاء الله.

وإن القارئ المنصف إذا نظر في أيّ مقوم من مقومات الإدارة أو أيّ مقوم من مقومات الحضارة ثم نظر في نصوص القرآن والسنة النبوية المطهرة سيجد أن القرآن والسنة قد تظاهرا على الدلالة والتوكيد عليها، وعلى سبيل المثال إذا نظر فيما يسمى القواعد العشر أو المبادئ العشرة في علم الإدارة سيجد أن الإسلام قد حثّ عليها وسبق إليها. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الباحث إذا نظر إلى أيّ موضوع من موضوعات هذا الدين أو مقوم من مقومات الحضارة التي جاء الإسلام بالدعوة إليه - ظن لأول وهلة أن الإسلام إنما جاء لهذا الغرض فقط، أو أن هذا الموضوع هو الموضوع الرئيس في الإسلام، لكثرة ما يرى من النصوص الدالة عليه، ولذا فلن أستطيع أن أجمع في هذا البحث كل النصوص المتعلقة بأيّ موضوع تناولته وأشرت إليه، إنما أكتفي بما يدل عليه ويبين مكانته في الإسلام، كما أنني لم أتمكن من الإحاطة بكل مقوم من مقومات الحضارة مما جاء به الإسلام، وإنما حسبي أن أشير إلى أساس هذه المقومات وأذكر أبرزها بحسب اجتهادي، مستنداً على ذلك من الكتاب والسنة المطهرة.

وقد قسمت هذا البحث إلى ثلاثة مباحث رئيسة هي:

المبحث الأول: القيم العلمية ويندرج تحتها ثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول: العلم

المطلب الثاني: الدين

المطلب الثالث: الإتقان

ونحن في هذا العدد من الدراسات الإسلامية بصدد معالجة المبحث الأول من هذه المباحث الثلاثة وسوف يليها إن شاء الله تعالى نقاش حول المبحثين الآخرين بالترتيب الآتي:

المبحث الثاني: القيم الاجتماعية ويدخل تحتها سبعة مطالب هي:

المطلب الأول: الوسطية

المطلب الثاني: العناية بالمرأة

المطلب الثالث: الحب

المطلب الرابع: الرحمة

المطلب الخامس: السلام

المطلب السادس: الخلق

المطلب السابع: النظافة

المبحث الثالث: القيم الإدارية ويندرج تحتها ستة مطالب وهي:

المطلب الأول: الشمول للمبادئ والعقائد

المطلب الثاني: كفالة الحقوق

المطلب الثالث: تنمية المال والمحافظة عليه

المطلب الرابع: العدل

المطلب الخامس: القوة

المطلب السادس: احتمال المخالف

والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه، موافقاً لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن يكون من العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعله سبيلاً إلى الدعوة إلى دينه الحنيف، وهادياً إلى صراطه المستقيم، منافحاً عن رسوله وكتابه، "وإلى الله جلّ اسمه ألبأ في تصحيح عملي ونيّتي، وإليه أبرأ من حولي وقوتي، ومنه أستمد الهداية لهمي وعزمتي، وإياه أسأل العصمة والولاية لجمليتي، والعفو والغفران لذنبي وزلّتي، إنه منعم كريم" (4).

وفي ختام هذه المقدمة أشكر الله وهو أهل الشكر ومستحقه على ما منّ به ولطف ويُسّر من إتمام هذا العمل المتواضع، وأشكره سبحانه على نعمه المتوالية ومننه المتتابعة، وأسأله أن يتم نعمته عليّ بمغفرة ذنبي وحسن خاتمتي، كما أشكر كل من أعان على هذا البحث. وأذكر القارئ أن هذا البحث سينشر على

ثلاثة أقسام في ثلاثة أعداد متتالية إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين.

### المبحث الأول: القيم العلمية:

يتناول الحديث في هذا المبحث ثلاثة مطالب تشترك في قاسم واحد، وترتبط برباط واحد، ألا وهو الدليل والبرهان، فالعلم والدين والإتقان لا يقوم ساقها ولا يشتد عودها إلا على دليل جلي وبرهان واضح وحجة دامغة، ولأن العلم هو أساس الدين، وهو مقدم على العمل به، فقد قدمته في هذا المبحث، ثم يتلوه الدين، ثم يجتم بالإتقان.. فإليك تفاصيل ذلك:

### المطلب الأول: العلم:

هذا الدين العظيم هو دين العلم، ولو سئل المنصف عن أبرز وأعظم جانب من جوانب الدين لقال: العلم، فما من مسألة إلا وللعلم فيها حظ وافر، تأسيساً أو استدلالاً، وفي المسائل التالية نتبين مكانة العلم في هذا الدين.

### المسألة الأولى: بيان اهتمام الإسلام بالعلم:

يعجز الباحث في هذا الباب أن يحيط بها جاء في الإسلام من جوانب مشرقة تبين اهتمام الإسلام بالعلم، فتارة يأتي الحث على التعلم، وتارة يأتي بيان فضل أهله، وتارة الإخبار أن مكانتهم أعظم من مكانة المجاهد في سبيل الله، وتارة بيان أن منزلة العالم أعظم عند الله من منزلة العابد... إلى آخر هذه الجوانب المضيئة التي نذكر طرفاً منها وهي:

### الجانب الأول: الحث على تعلم العلم:

مما يدل على ذلك أن أول آية نزلت على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هي قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾. ويذكر ابن عاشور أن من أغراض هذه السورة: "تلقين محمد صلى الله عليه وسلم القرآن وتلاوته، إذ كان لا يعرف التلاوة من قبل، والإيحاء إلى أن علمه بذلك ميسر، لأن الله الذي ألهم البشر العلم بالكتابة قادر على تعليم من يشاء ابتداءً، وإيحاء إلى أن أمته ستصير إلى معرفة القراءة والكتابة والعلم، وتوجيهه إلى النظر في خلق الله للموجودات وخصوصاً خلقه الإنسان خلقاً عجبياً مستخرجاً من علقه، فذلك مبدأ النظر" (6).

5- سورة العلق، الآيات: 1-5.

6- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون بتونس، 15/434.

ومما يدل على ذلك أيضاً أن الله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبدأ بالعلم قبل العمل فقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ (7).

قال ابن جرير عند تفسير هذه الآية: "فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهية، ويجوز لك وللخلق عبادته إلا الله الذي هو خالق الخلق ومالك كل شيء، يدين له بالربوبية كل ما دونه، واستغفر لذنبك وسل ربك غفران سالف ذنوبك وحادثها وذنوب أهل الإيمان بك من الرجال والنساء" (8).

وبين النبي صلى الله عليه وسلم أن طريق العلم طريق موصل إلى الجنة فقال صلى الله عليه وسلم: "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة" (9). وهذا الحديث ورد مطولاً عند الترمذي بلفظ: "من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله به طريقاً من طرق الجنة، فإن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم، وإن طالب العلم ليستغفر له من في السماء والأرض حتى الحيتان في الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم، إن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظه أو بحظ وافر" (10).

وقال صلى الله عليه وسلم: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين" (11). قال ابن حجر رحمه الله في بيان معنى هذا الحديث: "وفي ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس، ولفضل التفقه في الدين على سائر العلوم" (12).

- 
- 7- سورة محمد، الآية: 19.
- 8- محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المحقق: محمد أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420 هـ، 26/53.
- 9- مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، ح 2699، 4/2074.
- 10- سنن الدارمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1407 هـ، ح 342، 1/110: قال عنه الألباني: صحيح. انظر: محمد بن ناصر الدين الألباني، صحيح الجامع الصغير، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، 1406 هـ، حديث رقم: 6298 وسنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر، دار إحياء التراث، بيروت، 5/48، وسنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، 1/78.
- 11- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار ابن كثير، بيروت، 1407 هـ، ح 71، 1/39، وصحيح مسلم، ح 1037، 2/718.
- 12- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، 165/1.

ومما يوضح فضل العلم والتعلم هذا المثال الذي ضربه النبي صلى الله عليه وسلم للعلم ولمن أخذه ووعاه وأداه، فعن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به" (13).

الجانب الثاني: مكانة العلم والعلماء:

من أعظم ما يبين مكانة العلم وأهله أن الله سبحانه وتعالى قرن شهادته بشهادتهم على أجل وأعظم مشهود وهو الشهادة له سبحانه وتعالى بالوحدانية فقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأَسْأَلُونَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ وَمَنْ يَكْفُرْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ سَرِيعٌ الْحِسَابِ ﴿١٤﴾. قال ابن كثير رحمه الله: "شهد تعالى وكفى به شهيداً، وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم وأصدق القائلين: "أنه لا إله إلا هو" أي المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبده وخلقه وفقراء إليه، وهو الغني عما سواه كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَنْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾. الآية، ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته فقال ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام" (15).

قال ابن القيم رحمه الله موضعاً فضلاً ومكانة أهل العلم وذاكراً وجوهاً كثيرة تدل على علو درجتهم نذكر منها ما له تعلق بهذه الآية حيث يقول: "استشهد سبحانه بأولى العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه: أحدها: استشهدهم دون غيرهم من البشر. والثاني: اقتران شهادتهم بشهادته. والثالث: اقترانها بشهادة ملائكته. والرابع: أن في ضمن هذا تركيبتهم وتعديلهم، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول، ومنه الأثر المعروف عن النبي صلى الله عليه وسلم: "يحمل هذا العلم من كل خلف

13 - صحيح البخاري، ح 42/79، 1. واللفظ له، وصحيح مسلم، ح 2282، 4/1787.

14 - سورة آل عمران، الآيتان: 18-19.

15 - إسماعيل بن عمر بن كثير أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، 1401هـ، 1/354.

عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين...<sup>(16)</sup> الخامس: أنه سبحانه استشهد بنفسه وهو أجل شاهد، ثم بخيار خلقه وهم ملائكته والعلماء من عباده، ويكفيهم بهذا فضلاً وشرفاً. السادس: أنه استشهد بهم على أجل مشهود به وأعظمه وأكبره وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم. السابع: أنه سبحانه جعل شهادتهم حجة على المنكرين، فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده. الثامن: أنه سبحانه أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن ملائكته ومنهم، ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته، وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته، فكأنه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم وأنطقهم بهذه الشهادة فكان هو الشاهد بها لنفسه إقامة وإنطاقاً وتعليماً وهم الشاهدون بها له إقراراً واعترافاً وتصديقاً وإيماناً<sup>(17)</sup>.

ويبين جل ثناؤه في آيات كثيرة أنه يرفع درجات العلماء فقال عز شأنه: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾<sup>(18)</sup>. وأنهم لا يستوون مع من ليسوا من أهل العلم فقال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾<sup>(19)</sup>. قال ابن القيم رحمه الله: "نفى سبحانه التسوية بين أهله وبين غيرهم، كما نفى التسوية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ وهذا يدل على غاية فضلهم وشرفهم"<sup>(20)</sup>.

الجانب الثالث: بناء المنهج العلمي:

أقام هذا الدين لأتباعه منهجاً علمياً رشيداً في النظر والاستدلال والتدبر والتفكير وكيفية التعامل مع المستقبل، وبين في كل فن وعلم ما يحتاج الإنسان إليه، والأصول التي يرجع إليها وينطلق

16 - أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، سنن البيهقي، محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، 1414 هـ

.209 / 10

17 - شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار الفكر، بيروت، ص 63-66.

18 - سورة المجادلة، الآية: 11.

19 - سورة الزمر، الآية: 9.

20 - المرجع السابق، 65.



منها، وسأشير إلى شيء من ذلك فيما يلي:

أولاً: المنهج العلمي في الاستدلال:

وهذا المنهج يقوم على ركائز وأسس متينة لا تميل مع الهوى ولا تخضع لتقليد موروث، أو تحايي

رئيساً متبوعاً، وهذه الركائز والأسس هي:

1- الاعتماد على الدليل وعدم الإيهان والتسليم لما لم ينصره الدليل، ولذا أقام سبحانه الأدلة العقلية

البرهانية الكثيرة العظيمة على مسائل الإيهان، كقوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُلْحِقُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾. فانظر كيف أقام الدليل وطالب المخالف بالدليل البرهاني فقال: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾.

ويبين سبحانه وتعالى بالدليل العقلي أن الإله لا يمكن أن يحتاج إلى الطعام، لأن من احتاج إلى الطعام احتاج

إلى أن يتخلى فقال عز شأنه: ﴿مَا الْمَسِيحُ أَبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ

كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظُرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّ يُؤْفَكُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم المسلم أن يكون إمعة متابعاً للناس لا يسأل عن هدى، ولا

يسترشد بدليل ففي سنن الترمذي عن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تكونوا إمعة

تقولون إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا،

وإن أسأؤوا فلا تظلموا" (23).

2- عدم التقليد والتحذير من متابعة الآباء والأسلاف إذا كانوا على ضلال فقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا

إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٦﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ

مُفْرِفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أُولَئِكَ حِجَّتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ

آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٨﴾﴾. فدللت هذه الآيات على أن الإنسان الذي لم يتحرر من تبعية

الآباء والأسلاف يترك الحق ولو بان له دليله ويتعلق بما عهد عليه آباءه.

21- سورة الأنبياء، الآيات: 21-24.

22- سورة المائدة، الآية: 75.

23- سنن الترمذي، ح 2007، 4/364.

24- سورة الزخرف، الآيات: 22-24.

3- التدبر والتفكر فيما يلقي على الإنسان وأن يُعْمَل فيه عقله ويتأمله بفكره، لينظر أحق هو فيتبعه، أم باطل فيجتنبه، قال عز شأنه: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوْجِدُوا فِيهِ آخِذِينَ كَثِيرًا﴾ (25). فأنزل إلى البشرية قرآناً يتلى إلى يوم القيامة ودعاهم إلى تأمله، وأرشدهم إلى مكن الخلل لو كان فيه فقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوْجِدُوا فِيهِ آخِذِينَ كَثِيرًا﴾، وحيث لا يوجد فيه اختلاف فهو من عند الله، وتأمل هذه الدعوة الكريمة والموعظة البليغة في هذه الآية العظيمة حيث يقول ربنا: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِزْفٍ وَمَنْ يُنْفَكِرْ لَهُمْ مِمَّا يَنْفَكِرُونَ لَهُمْ فَأُولَٰئِكَ أَوْلَىٰ لِلَّهِ فِئَةً إِنَّهُ يَهْدِي الْفِتْنَةَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (26). قال ابن جرير رحمه الله: "قيل في معناها: أن تقوموا لله بالنصيحة وترك الهوى مثني، يقول: يقوم الرجل منكم مع آخر فيتصادقان على المناظرة هل علمتم بمحمد صلى الله عليه وسلم جنوناً قط؟ ثم ينفرد كل واحد منكم فيتفكر ويعتبر فرداً، هل كان ذلك به؟ فتعلموا حينئذ أنه نذير لكم" (27). ويقول ابن كثير رحمه الله: "يقول إنما أطلب منكم أن تقوموا قياماً خالصاً لله ليس فيه تعصب ولا عناد، مثني وفرادي أي مجتمعين ومتفرقين، ثم تتفكروا في هذا الذي جاءكم بالرسالة من الله، أبه جنون أم لا؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك بان لكم وظهر أنه رسول الله حقاً وصدقاً" (28).

4- الاستدلال بالدليل الحسي على الأمر المعنوي الغيبي وهذا ظاهر في الاستدلال على أمر الوجدانية والبعث وغيرها كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (29). وقال عز شأنه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (30).

5- التجرد وعدم اتباع الهوى وأن يكون رائد الإنسان طلب الحق، والتخلي عن الباطل، لا التعصب لأهواء النفوس قال تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ

25- سورة النساء، الآية: 82.

26- سورة سبأ، الآية: 46.

27- جامع البيان، 22/ 104-105.

28- تفسير القرآن العظيم، 2/ 271.

29- سورة الروم، الآية: 28.

30- سورة فصلت، الآية: 39.

بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٣١﴾. ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بغيرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٢﴾.

6- التواضع أمام الحقيقة العلمية وعدم الاعتداد بالنفس وبما تعلمه من علم، وما ذاك إلا لأن القرآن أُرشدنا إلى أن الإنسان يخرج من بطن أمه جاهلاً لا يعلم شيئاً قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٣﴾. وأخبرنا أن العلم الذي يتلقاه الإنسان بل الإنسانية جمعاء هو قليل بالنسبة إلى ما آتاه الله الإنسان من العلم، قال جل ثناؤه: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٣٤﴾. وليقارن الإنسان بين ما تعلمه جيل القرن التاسع عشر الميلادي بما تعلمه الجيل الذي بعده، فإذا علم الإنسان هذه الحقيقة ورسخت في علمه زادت تواضعاً، وأدرك أن ما يجمله أكثر مما يعلمه، بل دفعه ذلك لطلب المزيد من العلم، فيكون العلم سبيلاً للمزيد منه، ولا يصيب الإنسان بالغرور ويظن أنه قد بلغ الغاية فيقف عن الطلب والتحصيل والاكتشاف. وفي هذا نكتة لطيفة وهي أن الإنسان إذا اعتر بالعلم وفرح به رد الحق الذي لا مرية فيه، قال تعالى مخبراً عن بعض الأمم السابقة: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٥﴾.

ثانياً: موافقة العلم الحديث لما جاء به الإسلام:

لئن وقفت الكنيسة موقفاً عدائياً من النظريات العلمية الحديثة<sup>(36)</sup>، وحكمت بالقتل والسجن على كل عالم يتوصل إلى نظرية أو مكتشف لا تؤيده الكنيسة، فقد حثَّ القرآن كما سبق على العلم تعلماً وتعليماً وبين مكانة العلماء عند الله وعند الناس، وتضمن القرآن آيات كثيرة تخبر عن أساس خلق

31- سورة المؤمنون، الآية: 71.

32- سورة القصص، الآيتان: 50-51.

33- سورة النحل، الآية: 78.

34- سورة الإسراء، الآية: 85.

35- سورة غافر، الآية: 83.

36- انظر: عبد الله المشوخي، موقف الإسلام والكنيسة من العلم، مكتبة المنار، الأردن، ط 1، 1402 هـ، ص 95 وما بعدها.

السموات والأرض، وخلق الإنسان الأول وما تناسل منه من ذرية، وتنبئ عن حوادث ماضية في غابر التاريخ، وتشرح لنا هذه الآيات أيضاً كيف يتكون السحاب، وكيف تتحرك الرياح... إلى غير ذلك مما حواه القرآن من الأخبار العلمية التي لم يتوصل العلم الحديث إليها إلا في هذا العصر المتأخر، فكان السبق للقرآن، وكان التمييز له من بين الكتب السماوية السابقة، حيث لم يستطع العلماء المعاصرون حتى من غير المسلمين أن يجدوا فيه خطأً واحداً، وهذا ما اعترف به كثير من الباحثين المنصفين الغربيين، بل هذا الأمر هو الذي قاد الطبيب الفرنسي موريس بوكاي إلى الإسلام حيناً قارن بين معطيات العلم الحديث وما تضمنه القرآن والتوراة والإنجيل فتبين له أن القرآن متوافق مع العلم، في حين أثبت أن التوراة والإنجيل الموجودين اليوم يخالفان العلم في المسائل التي تم بحثها، وصنف في ذلك كتابه القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف العلمية الحديثة وقد ترجم هذا الكتاب إلى لغات عدة. ويقول بوكاي في خاتمة كتابه بعد أن ذكر نتيجة دراسته للتوراة والإنجيل: "إن التناقضات والأمور غير المعقولة والتعارضات مع معطيات العلم الحديث تتضح تماماً وظيفياً مع كل ما سبق، لكن دهشة المسيحيين تعظم حقاً عندما يدركون كل هذا...". ثم يقول عن القرآن: "إن القرآن وقد استأنف التنزيلين اللذين سبقاه لا يخلو فقط من متناقضات الرواية وهي السمة البارزة في مختلف صياغات الأناجيل، بل يظهر أيضاً - لكل من يشرع في دراسته بموضوعية وعلى ضوء العلوم - طابعه الخاص وهو التوافق مع المعطيات العلمية الحديثة، بل أكثر من ذلك، وكما أثبتنا يكتشف القارئ فيه مقولات ذات طابع علمي من المستحيل تصور أن إنساناً في عصر محمد صلى الله عليه وسلم قد استطاع أن يؤلفها، وعلى هذا فالمعارف العلمية الحديثة تسمح بفهم بعض الآيات القرآنية التي كانت بلا تفسير صحيح حتى الآن"<sup>(37)</sup>.

ثالثاً: الإرشاد إلى أصول كثير من الفنون والعلوم:

الإسلام ليس منهج عبادة فقط، بل منهج حياة شامل لكل ما يحتاج إليه الإنسان؛ لذا تضمن الدلالة على الأصول التي لا بد منها في الجوانب الرئيسة للحياة، ولن أطيل في هذا وإنما أكتفي بمواضع الشاهد ومنها:

1- الدلالة على أصول العمل في مجال الأنبياء والأخبار، فقد أرشد سبحانه وتعالى إلى أصول كثيرة منها التثبت في تلقي الخبر وطلب البيئته، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا

37- موريس بوكاي، القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف العلمية الحديثة،

أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِحِّحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٣٨﴾. ومنها ألا يقول ما لم يعلم أو يفترى الكذب ويدعي أنه سمع ورأى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (39). قال ابن جرير وقيل معناه: "ولا تقل ما ليس لك به علم، وقيل: لا تقل رأيت ولم تر وسمعت ولم تسمع فإن الله تبارك وتعالى سائلك عن ذلك كله" (40). فالإنسان مسؤول عن سمعه وبصره وفؤاده، ومنها أن القول على الله بلا علم أعظم من الشرك فقال جل ثناؤه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ (41). ومنها التحذير من الكذب عموماً، ومن الذي يبلغ الآفاق ويعظم أثره على وجه الخصوص، فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم عقوبة ممتن هذا النوع من الكذب فقال صلى الله عليه وسلم: "وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شذقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق" (42).

2- الدلالة على أصول الأخذ بأسباب القوة لثلاثاً تفاجأ الأمة فتؤخذ على حين غرة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ (43). وقال سبحانه وتعالى في هذا الصدد: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُدُوعًا فَجَزَاهُمْ﴾ (44). وهذا الأمر الإلهي هو ما تقوم به اليوم مراكز الاستشعار عن بعد.

3- الدلالة على أصول القيادة الإدارية، والآيات والأحاديث التي توضح ذلك أكثر من أن تحصر ولكن نذكر منها ما يقوم به الاستشهاد، فقد أكدت الآيات القرآنية المسؤولية العامة والمسؤولية الفردية، وأن الجميع مطالب بالعمل ومحاسب على النتيجة، قال جل ثناؤه في بيان معرض المسؤولية الفردية: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (45). وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا

38- سورة الحجرات، الآية: 6.

39- سورة الإسراء، الآية: 36.

40- جامع البيان، 85/15.

41- سورة الأعراف، الآية: 33.

42- صحيح البخاري، ح 6640، 6/2585.

43- سورة الأنفال، الآية: 60.

44- سورة النساء، الآية: 71.

45- سورة الانشقاق، الآية: 6.

يَرَهُ. ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ. ﴿٤٦﴾. وقال عن المسؤولية الجماعية: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالِينَ وَالشَّهَادَةُ فَيُنْتَشَرُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (47). وأرشد سبحانه إلى أن العامل لا بد أن يتصف بصفتين رئيسيتين هما: القوة والأمانة، قال عز شأنه: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (48). هذه الأصول جعلت المسلم تابعاً كان أو متبوعاً يستشعر عظم المسؤولية، فلا يعمل عملاً يلحق الضرر بالآخرين، لأنه يعلم أنه مسؤول عنه غداً، وفي هذا يقول روجيه جارودي المفكر الفرنسي المسلم: الفرق بين حضارة المسلمين وحضارة الغرب سؤالان: الغرب دائماً يسأل بـ "كيف" والمسلم يسأل دائماً بـ "لماذا" والسؤال الأول مدمر، لأنه يسأل عن الكيفية ولا يسأل عن النتيجة، ولذا أنتج هذا السؤال القنبلة الذرية، لأن السؤال كان: كيف نبيد العدو ونبقي ممتلكاته؟! والسؤال الثاني سؤال إيجابي، لأنه يسأل عن الغاية قبل الشروع في العمل (49).

4- الدلالة على أصول الأخلاق، فقد أرشد القرآن إلى لبها وجوهرها فقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٧) ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٨) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (٩) ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (50). وبين النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضي الله عنهم أن خيار الناس هم أصحاب الأخلاق الفاضلة فقال صلى الله عليه وسلم: "إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً" (51). وأرشد القرآن العظيم إلى أن التعامل بالخلق الحسن ينبغي أن يكون مع الناس كلهم فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (52). وجعل النبي صلى الله عليه وسلم أن من علامة كمال المرء أن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه فقال صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" (53).

5- الدلالة على أصول الاقتصاد، ذلك أنها لا تقوم حضارة بغير اقتصاد قوي متين، ومن أجل ذلك

46- سورة الزلزلة، الآيتان: 7-8.

47- سورة التوبة، الآية: 105.

48- سورة القصص، الآية: 26.

49- من قراءة قديمة في كتبه ولم أهد إليها الآن.

50- سورة الشمس، الآيات: 7-10.

51- صحيح البخاري، ح 5688، 5/2245، وصحيح مسلم، ح 2321، 4/1810.

52- سورة البقرة، الآية: 73.

53- صحيح البخاري، ح 13، 14/14، وصحيح مسلم، ح 45، 67/1.

شرع البيع وحرم الربا فقال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾<sup>(54)</sup>. ومنع الرسول صلى الله عليه وسلم الاحتكار والغش لأن ذلك يقوض دعائم الاقتصاد، وحذر الشارع من الداء العظيم الذي لا يقوم معه اقتصاد ألا وهو الإسراف، فقال جل ثناؤه: ﴿يَبْنَیْءَ آدَمَ حُدُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾<sup>(55)</sup>.

6- الدلالة على أصول الصحة العامة، فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم مشروعية الدواء فقال صلى الله عليه وسلم: "تداووا عباد الله فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له معه شفاء إلا الهرم"<sup>(56)</sup> وأرشد إلى أصل عظيم من أصول الصحة ألا وهو الوقاية من الأمراض قبل وقوعها فقال صلى الله عليه وسلم: "من تصبّح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر"<sup>(57)</sup>. وفي رواية مسلم: "من أكل سبع تمرات مما بين لابتيها حين يصبح لم يضره سم حتى يمسي"<sup>(58)</sup>. وفي هذا بعدد وقائي في الاحتياط من الأمراض والتوقّي منها قبل وقوعها، ومع هذا الاحتياط فقد منع النبي صلى الله عليه وسلم من دخول البلاد الموبوءة فقال: "إذا كان الطاعون بأرض فلا تهبطوا عليه، وإذا كان بأرض وأتم بها فلا تفروا منه"<sup>(59)</sup>. وحذر من ورود المريض مرضاً معدياً على الصحيح فقال صلى الله عليه وسلم: "لا يوردن ممرض على مصح"<sup>(60)</sup>.

كما أمر بأخذ الاحتياط اللازم في التوقّي من أسباب التلف والضرر فقال صلى الله عليه وسلم: "أطفئوا المصابيح إذا رقدتم، وغلقوا الأبواب، وأوكوا الأبقية، وخرروا الطعام والشراب"<sup>(61)</sup>. ففيه تنبيه

54- سورة البقرة، الآية: 275.

55- سورة الأعراف، الآية: 31.

56- محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي، الأحاديث المختارة، تحقيق: عبد الملك بن دهيش، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ط 1، 1410 هـ، 4/170، ومحمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411 هـ، 1/208، ومحمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم البستي، صحيح بن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة، بيروت، ط 2، 1414 هـ، 13/426.

57- صحيح البخاري، ح 5130، 5/2075.

58- صحيح مسلم، ح 1618، 3/2047.

59- الأحاديث المختارة، 3/161، وقال: إسناده صحيح.

60- صحيح البخاري، ح 5437، 5/2177، وصحيح مسلم، ح 2221، 4/1743.

61- صحيح البخاري، ح 5301، 5/2132.

إلى اتباع وسائل السلامة في التعامل مع المصابيح التي تستعمل الشمع أو الغاز وما في حكمها من المدافئ، وفيه التنبيه إلى إغلاق الأبواب، وتغطية الطعام والشراب لئلا تصيبها الهوام والجراثيم والميكروبات. ولو أردنا أن نقف مع كل علم وفن لنستنبط أصوله لطال بنا المقام، ولكن يكفي أننا ذكرنا أصول العلم والصحة والاقتصاد والإعلام والأخلاق والقوة.

#### المطلب الثاني: الدين:

وهذا المطلب من أعظم المطالب بل هو أعظم مقوم من مقومات الحضارة بل أعظم مقوم من مقومات الحياة، ولذا لا توجد أمة بغير دين، وهذا يدل على أن الدين أمر فطري، والإسلام جاء لإشباع هذا الأمر الفطري، وكان هو الدين الصحيح كما سترى، ويندرج تحت هذا المطلب مسائل كثيرة وهي:

#### المسألة الأولى: التعريف:

تعريفه لغة واصطلاحاً، أما تعريفه لغة فهو كما قال الفيروز آبادي: الدين بالكسر الجزاء، وقد دنته ديناً، وقد دنت به، والعادة والعبادة والمواظب من الأمطار، والذل والحساب والقهر والغلبة والاستعلاء والسلطان والملك والحكم والسيرة والتدبير. والديان القهار والقاضي والحاكم والسائس والحاسب والمجازي الذي لا يضيع عملاً بل يجزي بالخير والشر. ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَءَا كَمِدْيُونُ﴾<sup>(62)</sup> أي لمجزيون محاسبون<sup>(63)</sup>.

وأما تعريفه اصطلاحاً فقد: قال الراغب في المفردات: "الدين يقال للطاعة والجزاء، واستعير للشريعة"<sup>(64)</sup>. وقال الفيروز آبادي: "الدين: اسم لجميع ما يتعبد الله عز وجل به"<sup>(65)</sup>. وقد عرف بعض علماء الإسلام الدين بأنه: "وضع إلهي سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم إلى ما فيه الصلاح في الحال والفلاح في المآل". وقال دراز أيضاً ويمكن تلخيصه بأن نقول: "وضع إلهي يرشد إلى الحق في

62 - سورة الصافات، الآية: 53.

63 - الطاهر أحمد الزواوي، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، دار عالم الكتب، الرياض، ط4، 1417هـ، مادة "دين"، 1/ 1546. ومحمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت، 1415هـ، 1/ 99.

64 - الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ص 175.

65 - الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة "دين"، 1/ 1546.



الاعتقادات، وإلى الخير في السلوك والمعاملات" (66) وعرفه ابن الكمال فقال: "وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول" (67).

هذه بعض تعريفات الدين عند علماء المسلمين، أما تعريفات علماء الغرب فقد تنوعت واختلفت باختلاف مشاربهم ومعتقداتهم وأديانهم وفنونهم، فتجد تعريف علماء الاجتماع يختلف عن تعريف الفلاسفة، ويخالف أيضاً تعريف أصحاب الفكر، وسنستعرض جملة من تعاريفهم له لنرى مدى التباين بينهم، فقد ورد تعريفه في المعجم الفلسفي بأنه "مجموعة من معتقدات وعبادات مقدسة يؤمن بها جماعة معينة لسد حاجة الفرد والمجتمع على السواء، أساسه الوجدان، وللعقل فيه مجال"، (68) وعرفه علماء الاجتماع الغربيون بأنه: "نظام اجتماعي يقوم على وجود موجود أو أكثر، أو قوى فوق الطبيعة، ويبين العلاقات بين بني الإنسان وتلك الموجودات وتحت أية ثقافة معينة تشكل هذه الفكرة لتصبح نمطاً أو أنماطاً اجتماعية أو تنظيمياً اجتماعياً، ومثل هذه الأنماط أو النظام تصبح معروفة باسم الدين" (69).

وقد أورد أحمد عجيبة عدداً من تعريفات الدين، وقسمها إلى ثلاث مجموعات تبعا للمنهج المستخدم في التعريف، وأورد ضمن كل مجموعة عدداً من التعاريف نختار واحداً من كل مجموعة، لأن الهدف الاستشهاد والعرض لا المناقشة والرد.

التعريف الأول: وهو من تعريفات المنهج الباطني: "هو مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالق، وواجبات الإنسان نحو الله، وواجباته نحو الجماعة، وواجباته نحو نفسه".

التعريف الثاني: وهو من التعريفات القائمة على الحدس: "رد فعل دفاعي تقاوم به الطبيعة ما في اشتغال العقل مما قد يشل قوى الفرد ويخل تماسك المجتمع".

التعريف الثالث: وهو من تعريفات المنهج المقارن: "توجيه الإنسان سلوكه وفقاً لشعوره بصللة بين روحه وبين روح خفية يعترف لها بالسلطان عليه وعلى سائر العالم ويطيب له أن يشعر باتصاله بها" (70).

66- محمد عبدالله دراز، الدين، دار القلم، الطبعة الثانية، 1390 هـ، ص 33.

67- انظر: علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1405 هـ، 1/344. وانظر: صديق بن حسن القنوجي، أبجد العلوم الموشى المرقوم في بيان أحوال العلوم، تحقيق: عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978 م، 2/337.

68- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982 م، ص 86.

69- معجم العلوم الاجتماعية، تأليف الشعبة القومية للتربية والعلوم والثقافة، اليونسكو، إعداد نخبة من الأساتذة، تصدير ومراجعة: إبراهيم مذكور، نشر الهيئة المصرية للكتاب، 1975 م، ص 270.

70- أحمد علي عجيبة، دراسات في الأديان الوثنية القديمة، دار الآفاق العربية، مصر، ط 1، 1424 هـ، ص 21-27.

وحيثما تستعرض هذه التعريفات الغربية تجد الاختلاف التام بينها، ومرد ذلك إلى تنوع أديان أصحاب هذه الأقوال، وتعدد مشاربهم الثقافية والحضارية ما بين يونانية ورومانية ونصرانية وفلسفات حديثة حتى تعذر عليهم الاتفاق على تعريف معتبر، ولذا قال جيمس فريزر: "وأغلب الظن أنه لا يوجد موضوع في العالم اختلفت فيه الآراء مثلما اختلفت حول طبيعة الدين" (71).

وقد أورد الأستاذ الدكتور محمد عبدالله دراز في كتابه الدين جملة من التعاريف ونظر في العناصر المكونة لها وخرج منها بالحد التام لماهية الدين فقال: "الدين هو الاعتقاد بوجود ذات - أو ذوات غيبية - علوية، لها شعور واختيار، ولها تصرف وتدابير للشؤون التي تعني الإنسان، اعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية في رغبة ورهبة، وفي خضوع وتمجيد" وبعبارة موجزة هو: "الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة" هذا إذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حالة نفسية بمعنى التدين، أما إذا نظرنا إليه من حيث هو حقيقة خارجة فنقول: "هو جملة النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك الذات الإلهية، وجملة القواعد العلمية التي ترسم طريق عبادتها" (72).

ويرجع رؤوف شلبي الاختلاف حول تعريف الدين إلى ما يلي:

- كثرة الموارث المظلمة فيما يتعلق بالدين الذي توارثوه عن الأمم الوثنية القديمة.
- عدم وجود نصوص في كتبهم الدينية توضح مفهوم الدين.
- عدم وضوح عقائدهم التي ورثوها في أذهانهم.
- عدم كمال دائرة الفروض العقلية التي وضعوها لمناقشة الدين والتدين.
- فساد المقاييس العلمية التي وضعوها لتفسير الدين (73).

ويمكن أن يضاف إليها:

- عدم معرفتهم للدين الصحيح فجاءت تعريفاتهم منطلقة من أديانهم.
  - عدم تفريقهم بين الدين الإلهي المنزل والأديان البشرية الوضعية.
- وحيثما تقارن بين تعريفاتهم وتعريفات العلماء المسلمين تجد أن كلاً قد عرّف ما عرف وعهد، فالعالم المسلم عرف الدين الصحيح المنزل من عند الله فعرفه كما آمن به وكما عهد، والعالم الغربي الذي

71- الغصن الذهبي، ترجم بإشراف أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للتأليف، 1971م، ص 217.

72- محمد عبد الله دراز، الدين، ص 52.

73- رؤوف شلبي، يأهل الكتاب، ص 48، نقلا من أحمد علي عجيبة، دراسات في الأديان الوثنية القديمة، ص 31.

لم يتفياً الدين الصحيح وإنما عاش متنقلاً بين فلسفة وضعية ودين محرف جاء تعريفه لياً عجز عن فهمه فضلاً عن الإيمان به.

#### المسألة الثانية: ضوابط الدين الصحيح:

وبعد بيان تعريف الدين لابد أن نتناول الضوابط التي نميز بها بين الدين الصحيح والدين المحرف أو الدين الذي وضعه البشر، وهذه الضوابط هي:

- 1- أن يكون الدين منزلاً من عند الله بواسطة ملك من الملائكة على رسول من رسله ليبلغه إلى عباده، وعلى هذا فكل دين يأتي به شخص ويدعو إلى عبادة نفسه فهو دين باطل لا محالة.
- 2- أن يدعو إلى إفراد الله سبحانه بالعبادة وتحريم الشرك والوسائل المفضية إليه.
- 3- أن يكون متفقاً مع الأصول التي دعا إليها جميع الأنبياء والمرسلين.
- 4- أن يتضمن الهداية إلى شرع الله وتعريف الإنسان بالحقائق الكبرى المتعلقة بالله سبحانه وتعالى وبيان صفاته وأسمائه وأفعاله، وبيان ما في هذا الكون مما يتعلق بالغيب الماضي والآتي، وحقائق النفس البشرية وما يصلحها ويزكيها أو يشقيها.
- 5- ألا يكون متناقضاً ولا مختلفاً بعبءه مع البعض الآخر فلا يأمر بأمر ثم ينقضه بأمر آخر، ولا يحرم شيئاً ثم يبيح مثله من غير علة.
- 6- أن يضمن الدين ما يحفظ على الناس دينهم وأنفسهم وأعراضهم وعقولهم وذرياتهم بما يشرع من الأوامر والنواهي والزواجر والأخلاق التي تحفظ هذه الكليات الخمس.
- 7- أن يكون الدين رحمة للخلق من ظلم أنفسهم ومن ظلم بعضهم لبعض.
- 8- أن يدعو إلى مكارم الأخلاق والأفعال.
- 9- أن يحقق السعادة لمن آمن به.
- 10- أن يدل على الحق ويحذر من الباطل، ويرشد إلى الهدى وينفر من الضلال، وأن يدعو الناس إلى صراط مستقيم<sup>(74)</sup>.

#### المسألة الثالثة: الحاجة إلى الدين:

وبعد البسط لأهم الضوابط التي تتميز بين الدين الصحيح والدين الباطل فيحسن أن نتبين هل

74- محمد بن عبد الله بن صالح السحيم، الإسلام أصوله ومبادئه، وزارة الشؤون الإسلامية، الرياض، 1422هـ،

ص 75-59. وقد بسطت فيه هذه الضوابط.

الإنسان محتاج إلى الدين الصحيح أم أنه ترف فكري يمكن الاستغناء عنه؟! وللاجابة على هذا السؤال ينبغي أن نستصحب معنا حقيقة الإنسان ومادة خلقه والغاية من خلقه. فالإنسان مخلوق من روح وطين، ومكون من جسد وروح، ويعيش في مجتمع تتنازعه أهواء المجموعة، ومطالب بتكاليف إلهية لا بد أن ينال جزاءه عليها إن أحسن أو أساء.

إنك حينما ترى الإنسان في كل زمان ومكان تجده مخلوقاً متديناً فلا يعيش الإنسان بغير دين، وهذا ما يجعل كثيراً من الدراسات تؤكد احتياج الإنسان إلى الدين، فحاجته إليه أعظم من حاجته إلى الطبيب والغذاء والشراب كما يقول ابن القيم رحمه الله (75).

أما أسباب حاجته إلى الدين فكثيرة جداً وقد تنوعت إجابات الباحثين حول تعدادها وذكرها، لكنها مجمعة على هذه الحاجة وتنوعها، يقول معجم (لاروس) للقرن العشرين: "إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية، حتى أشدها همجية، وأقربها إلى الحياة الحيوانية... وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبها فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية" (76).

ويبين أرنولد توينبي: "إن جوهر الدين ثابت ثابت جوهر الطبيعة البشرية ذاته، فالدين في الحقيقة صفة ذاتية مميزة للطبيعة البشرية" (77).

وينقل الأستاذ دراز لنا إجماع مؤرخي الأديان على هذه الحقيقة فيقول: "إن الحقيقة التي أجمع عليها مؤرخو الأديان هي أنه ليست هناك جماعة إنسانية، بله أمة كبيرة، ظهرت وعاشت ثم مضت دون أن تفكر في مبدأ الإنسان ومصيره، وفي تحليل ظواهر الكون وأحداثه، ودون أن تتخذ لها في هذه المسائل رأياً معيناً، حقاً أو باطلاً، يقيناً أو ظناً، تصور به القوة التي تخضع لها هذه الظواهر في نشأتها، والمآل الذي تصير إليه الكائنات بعد تحولها" (78).

ويقول الدكتور القرضاوي: "إن حاجة الإنسان إلى الدين عامة، وإلى الإسلام خاصة، ليست حاجة ثانوية ولا هامشية، إنها حاجة أساسية أصيلة، تتصل بجوهر الحياة وسر الوجود وأعمق أعماق الإنسان". وفي أقصى ما يمكن من الإيجاز - غير المخل - نبين هنا وجه الحاجة إلى الدين في حياة الإنسان ثم

75- مفتاح دار السعادة، 2/ 383.

76- الدين، ص 82.

77- دراسات في الأديان القديمة، ص 43.

78- الدين، ص 38.

نبين أوجه الحاجة إلى الدين وهي بحسب رأيه كما يلي:

الأول: حاجة العقل إلى معرفة الحقائق الكبرى في الوجود وتتلخص فيما يلي:

1- حاجة الإنسان إلى عقيدة دينية تنبثق - أول ما تنبثق - من حاجته إلى معرفة نفسه ومعرفة الوجود الكبير من حوله، أي إلى معرفة الجواب عن الأسئلة التي شغلت بها فلسفات البشر ولم تقل فيها ما يشفي، فالإنسان منذ نشأته تلح عليه أسئلة يحتاج إلى الجواب عنها: من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟! ومهما تشغله مطالب العيش عن هذا التساؤل، فإنه لا بد واقف يوماً ليسأل نفسه هذه الأسئلة الخالدة:

أ- يقول الإنسان في نفسه: من أين جئت وجاء هذا الكون العريض من حولي؟ هل وجدت وحدي أم هناك خالق أوجدني؟ ومن هو؟ وما صلتني به؟ وكذلك هذا العالم الكبير بأرضه وسمائه، وحيوانه ونباته وجماده وأفلاكه، هل وجد وحده أم أوجده خالق مدبر؟

ب- ثم ماذا بعد هذه الحياة... وبعد الموت؟ إلى أين المسير بعد هذه الرحلة القصيرة على ظهر هذا الكوكب الأرضي؟ أتكون قصة الحياة مجرد "أرحام تدفع وأرض تبلع" ولا شيء بعد ذلك؟

ج- ثم لماذا وجد الإنسان؟ لماذا أعطي العقل والإرادة وتميز عن سائر الحيوان؟ لماذا سخر له ما في السموات وما في الأرض؟ أهناك غاية من وجوده؟ أله مهمة في حياته؟ أم وجد لمجرد أن يأكل كما تأكل الأنعام ثم ينفق كما تنفق الدواب؟ وإن كانت هناك غاية من وجوده فما هي؟ وكيف يعرفها؟ ما ذكرناه من حاجة الإنسان إلى الدين يتصل بحاجاته العقلية، ولكن هناك حاجة الوجدان والشعور أيضاً، فالإنسان ليس عقلاً فقط، كالأدمغة الإلكترونية، إنها هو عقل ووجدان وروح، هكذا تكونت فطرته ونطقت جبلته. فالإنسان بفطرته لا يقنعه علم ولا ثقافة، ولا يشبع نهمته فن ولا أدب، ولا يملأ فراغ نفسه زينة أو متعة، ويظل قلق النفس، جوعان الروح، ظمآن الفطرة، وشاعراً بالفراغ والنقص، حتى يجد العقيدة في الله، فيطمئن بعد قلق، ويسكن بعد اضطراب، ويأمن بعد خوف، ويحس بأنه وجد نفسه.

3- وثمة حاجة أخرى إلى الدين: حاجة تقضيها حياة الإنسان وآماله فيها، وآلامه بها... حاجة الإنسان إلى ركن شديد يأوي إليه، وإلى سند متين يعتمد عليه، إذا ألمت به الشدائد، وحلت بساحته الكوارث، ففقد ما يحب، أو واجه ما يكره، أو خاب ما يرجو، أو وقع به ما يخاف، هنا تأتي العقيدة الدينية، فتمنحه القوة عند الضعف، والأمل في ساعة اليأس، والرجاء في لحظة الخوف، والصبر في البأس والضراء وحين البأس.

إن العقيدة في الله وفي عدله ورحمته، وفي العوض والجزاء عنده في دار الخلود، تهب الإنسان الصحة النفسية والقوة الروحية، فتشيع في كيانه البهجة، ويغمر روحه التفاؤل، وتتسع في عينه دائرة الوجود، وينظر إلى الحياة بمنظار مشرق، ويهون عليه ما يلقي وما يكابد في حياته القصيرة الفانية، ويجد من العزاء والرجاء والسكينة ما لا يقوم مقامه ولا يغني عنه علم ولا فلسفة ولا مال ولا ولد ولا ملك المشرق والمغرب.

4- وهناك حاجة أخرى إلى الدين: حاجة اجتماعية، إنها حاجة إلى بواعث وضوابط: بواعث تدفع أفراداً إلى عمل الخير، وأداء الواجب وإن لم يوجد من البشر من يراقبهم، أو يكافئهم.. وضوابط تحكم علاقاتهم، وتلزم كل واحد منهم أن يقف عند حده، ولا يعتدي على حق غيره أو يفرط في خير مجتمعه، من أجل شهوات نفسه، أو منفعتة المادية العاجلة. ولا يقال: إن القوانين واللوائح كافية لإيجاد هذه الضوابط وتلك البواعث، فإن القوانين لا تخلق باعثاً، ولا تكفي ضابطاً، فإن الإفلات منها ممكن، والاحتياط عليها ميسور، ولهذا كان لا بد من بواعث وضوابط أخلاقية، تعمل من داخل النفس الإنسانية لا من خارجها. لا بد من هذا الباعث الداخلي، ومن هذا: الوازع الذاتي، لا بد من الضمير، أو "الوجدان" أو "القلب" - سمه ما شئت - فهو القوة التي إذا صلحت صلح عمل الإنسان كله، وإذا فسدت فسدت كله<sup>(79)</sup>.

وإضافة إلى ما ذكره القرضاوي من حاجة إلى الدين فقد شاركه في جل ذلك أحمد علي عجيبة وزاد عليها جوانب أخرى منها وقد قسمها إلى حاجة الفرد إلى الدين وحاجة المجتمع إليه أيضاً ومما ذكر:

- أن الفرد محتاج إلى الدين لأنه محبوب على التدين ولا يستطيع الانفكاك عنه ويحتج لذلك بقول الفيلسوف أوجست سباتيه في كتابه فلسفة الأديان: "لماذا أنا متدين؟ إنني لم أحرك شفتي بهذا السؤال مرة، إلا وأراني مسوقاً للإجابة عليه بهذا الجواب، وهو: أنا متدين، لأنني لا أستطيع خلاف ذلك، لأن التدين لازم معنوي من لوازم ذاتي. يقولون لي: ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج، فأقول لهم: قد اعترضت على نفسي كثيراً بهذا الاعتراض نفسه، ولكنني وجدته يقهر المسألة ولا يحلها، وأن ضرورة التدين التي أشاهدها في حياتي الشخصية أشاهدها بأكثر قوة في الحياة الاجتماعية البشرية فهي ليست أقل تشبهاً مني بأهداب الدين"<sup>(80)</sup>. وهذا الذي عبر عنه هذا الفيلسوف بأنه "لازم ذاتي" هو عين ما عبر عنه التنزيل الإلهي بالفطرة، قال تعالى:

79- شبكة سلسبيل الإسلامية، موضوع "الحاجة إلى الدين" مقال للأستاذ يوسف القرضاوي.

80- دراسات في الأديان الوثنية القديمة، ص 66.

﴿ فَأَقْرَبُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (81).

- أن الإنسان يعيش في صراع بين متطلبات حياته ورغبات البيئته من حوله ولا يمكنه التغلب على هذا الصراع إلا بالعقيدة الدينية التي تنظم وتؤطر هذا الصراع.
- أن الدين الصحيح هو مصدر القيم والأخلاق والمثل العليا والسلوك الأخلاقي فيستمد منه الإنسان قيمه وعقائده ومبادئه القائمة على الإيمان بالله.
- أن من أكبر الأدلة وأقواها على حتمية التدين وضرورته أن هؤلاء الذين يحاولون الانفكاك والتخلص من الدين قد باءت محاولاتهم بالفشل والبوار بل تحولت إلى النقيض من ذلك، يقول مراد هوفمان: "إنه لأمر مزعج، قلة من يهتمهم شأن ما أصاب مجتمعاتهم في الغرب... فقدان المعنى، وغياب أي هدف أسمى في الحياة، مع ازدياد الفراغ نقص روحي ينذر بتحويل الوجود الفردي إلى مهمة يائسة عديمة المعنى - حقا كما قال برافيس منصور: الإلحاد يجبي ضربيته من كل نفس في الغرب" (82).

ثم استشهد عجيبية بدراسة قام بها تالكوت بارسونز تؤكد له فيها حاجة الإنسان إلى الدين بناء على خصائص الوجود الإنساني ومن هذه الخصائص:

- 1- خصيصة القلق التي يجيهاها الإنسان خوفاً من الفشل والإحباط عندما يقوم بعمل ما، والدين يمدّه بالفأل واليقين ويمنحه الطمأنينة على ما يقوم به.
- 2- خصيصة العجز تجاه ما يريد وما يواجه من ضغوط فهذا العجز يفسد عليه سعادته ورضاه، والدين الصحيح يصله بأسباب السماء فيتغلب على العجز والقنوط.
- 3- خصيصة الندرة وهي أن ما يتاح في هذا الكون من فرص ومعايش وحظوظ لا يتحقق بقدر تماثل لجميع البشر، وهو ما يجعل الإنسان يعيش حالة من الهم والحزن على ما فاتته وما أصابه، ويعاني من الخضوع لغيره في طلب حقه ونصيبه، ولا يسليه و يقيم في نفسه الموازين الحقيقية للمكاسب في هذا الكون ويملاً نفسه قناعة ورضا إلا الدين الصحيح (83). وهو ما جاء به

81- سورة الروم، الآية: 30.

82- مراد هوفمان، الإسلام عام 2000م، ترجمة عادل المعلم، مكتبة العبيكان، الرياض، ط 1، 1424هـ، ص 41.

83- دراسات في الأديان الوثنية القديمة، ص 70.

الإسلام من الإيمان بالقدر قال جل ثناؤه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٢٣) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٨٤﴾.

ويضيف ابن القيم رحمه الله جانباً مهماً من جوانب حاجة الإنسان إلى الدين ألا وهو حاجته إلى القوة العلمية النظرية، والقوة العلمية الإرادية، فيقول: "للإنسان قوتان: قوة علمية نظرية وقوة علمية إرادية، وسعاده التامة موقوفة على استكمال قوته العلمية والإرادية، واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فطره وبارئه، ومعرفة أسائه وصفاته، معرفة الطريق التي توصل إليه ومعرفة آفاتهما، معرفة نفسه ومعرفة عيوبها، فهذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية... واستكمال القوة العلمية الإرادية لا تحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد والقيام بها إخلاصاً وصدقاً ونصحاً وإحساناً ومتابعة وشهوداً لنته عليه وتقديره في أداء حقه... ولا سبيل إلى استكمال هاتين القوتين إلا بمعونته فهو مضطر إلى أن يهديه الصراط المستقيم الذي هدى إليها أوليائه وخاصة" (85). وتابع ابن القيم في التوكيد على أهمية هذا الجانب كل من محمد عبدالله دراز و أحمد عجيبة (86). ومما قال دراز في ذلك: "التدين عنصر ضروري لتكتمل القوة النظرية في الإنسان، فبه وحده يجد العقل ما يشبع نهمته. ثم هو عنصر ضروري لتكتمل فيه قوة الوجدان، فالعواطف النبيلة من الحب والشوق والشكر والتواضع... تجد في الدين مجالاً لا تُدرك غايته، ومنهلاً لا ينفد معينه. وأخيراً هو عنصر ضروري لتكتميل قوة الإرادة، يمدّها بأعظم البواعث والدوافع، ويدرّعها بأكبر وسائل المقاومة لعوامل اليأس والقنوط" (87). ويقول دراز أيضاً بعد أن استعرض حاجة العقل إلى الدين: "وجملة القول إن العقول السامية تشرّب دائماً من وراء الحقائق الجزئية الحائلة الزائلة، إلى حقيقة كلية أزلية أبدية، حقيقة لا يحويها شيء من العلوم والمعارف، ولكنها تتشوف إليها كل العلوم والمعارف، وتلك هي التي تفردّها الأديان الصحيحة بالتقديس... إن هذا التشوف الغريزي إلى الأزلي الأبدي، وهذا الطلب الخيثل للكلّي اللانهائي، له دالتان عميقتان: إحداهما: دلالة على مطلوبه لا كدلالة الأثر على صانعه. وثانيتهما: دلالة على أن في الإنسان عنصراً نبيلاً سماوياً خلق

84- سورة الحديد، الآيتان: 22-23.

85- ابن قيم الجوزية، الفوائد، تحقيق: أحمد راتب عرموش، دار النفائس، ط 1، 1399 هـ، ص 18-19.

86- الدين، ص 98، ودراسات في الأديان الوثنية القديمة، ص 67.

87- الدين، ص 97-98، بتصرف يسير.



للبقاء والخلود، وإن تناساه الإنسان وتلهى عنه حيناً، قانعا بالدون من الحياة الجثمانية المتحطمة..."(88).

المسألة الرابعة: مصدر الدين:

تختلف الآراء كثيراً وتشعب في هذا الموضوع، وهي إن اختلفت تُرجع الدين إلى مصدرين هما: المصدر الأول: الوحي الإلهي من الله سبحانه وتعالى خالق الكون وموجده، وعلى هذا فالدافع للتدين هو الفطرة التي فطر الناس عليها. وهذا الاتجاه هو ما عليه أصحاب الأديان الكبرى الثلاثة: اليهودية والنصرانية والإسلام. ولم يتبق لأتباع اليهودية والنصرانية من دليل على هذا إلا أسفارهم المعتمدة عندهم وما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم وهو تراث لم يسلم من النقد العلمي الذي أثبت بما لا يدع مجالاً للشك في تحريف هذا التراث وضياع أصوله، أما المسلمون فأدلتهم على أن مصدر دينهم الوحي الإلهي كثيرة منها:

- 1- القرآن الكريم الذي تحدى الله به الإنس والجن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وبقاء هذا التحدي قديماً وحديثاً ومستقبلاً.
  - 2- ما يقدمه القرآن من عقائد إيمانية راسخة لا تقبل النقض والإبطال، وقوانين اجتماعية وقواعد نفسية وأسس حضارية لا يملك الوصول إليها إلا عالم محيط خبير بأسرار الكون وخفايا النفس وتاريخ الماضي والحاضر والمستقبل.
  - 3- صدق صاحب الرسالة قبل البعثة وبعدها فلم يجرب عليه كذب قط.
  - 4- عدم انقطاع الصلة بين فترة تلقي القرآن وبين حفظه وتدوينه وتواتره من غير تحريف أو تبديل بعكس كتب الديانات السابقة(89).
  - 5- موافقة العلم المعاصر لما تضمنه القرآن من حقائق علمية عن الكون والإنسان والتاريخ(90).
  - 6- شهادة الذين أسلموا من اليهود والنصارى على أن هذا الدين العظيم "الإسلام" هو الدين الحق وهو الذي بشر به الأنبياء السابقون وهو الموافق لما جاؤوا به أيضاً، وهو الموافق للفطرة والمحقق لمتطلبات النفس البشرية.
- المصدر الثاني: فكر الإنسان، والباعث إليه فكره وحاجته وظروفه الطبيعية وبيئته، فيعتنقه كثير

88- المرجع السابق، ص 97-98، بتصرف يسير.

89- عمارة نجيب، الإنسان في ظل الأديان، مكتبة المعارف، الرياض، 1400هـ، ص 26-27.

90- انظر: مزيد توضيح لهذا الأمر في المطلب المتعلق بالعلم في هذا البحث.

ممن يؤمن بضرورة خضوع كل شيء للمنهج العلمي مدعين أن المنهج العلمي في نظرهم لم يوصلهم إلى شيء وراء الطبيعة، وما لم يصل العلم إلى إثباته فهو في نظرهم عدم وباطل، ولذا راحوا يلتمسون علة ظهور الأديان في كل المجتمعات البشرية في شيء غير الوحي وما وراء الطبيعة، ولم يكن أمامهم إلا الطبيعة نفسها بما فيها الإنسان، ومن هنا تفرعت وتعددت آراؤهم في أصل الإنسان ثم في كيف ظهر الدين<sup>(91)</sup>، ومع كثرة هذه الدراسات وتنوعها ظلت حائرة في هذا الباب تُحْبَطُ خبط عشواء، فلم تصل إلى نتيجة ولم تقطع الشك باليقين، ولم تياس من البحث رغم طول مدته، ولم تُلقِ أداة البحث إعلاناً للعجز.

فالحضارة لا تقوم إلا على دين صحيح يحقق للمتعممين في ظلها أهدافهم الفردية والاجتماعية والدينية والسياسية والفكرية العلمية والعملية... ولذا قال الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية كولج في إحدى خطبه: "إن البلاد في حاجة إلى التدين أكثر مما هي عليه الآن، وإني لا أتصور دواء أنجح وأكثر تأثيراً من الدين في إزالة المساوئ والشروخ التي تلون بها شعبنا، فليس في الدنيا نظام تربية أو نظام حكومة غير معرض للزوال، كما أنه ليس هناك جزء أو عقاب لم يفقد تأثيره فيما بعد إلا ما جاء عن طريق الصلاح والتضحية، وأساس الدين النصيحة، فلا سبيل إلى دوام الحضارة المضيئة ما دما محرومين من الإيمان"<sup>(92)</sup>.

والدين الصحيح الذي تقوم به المجتمعات كما أسلفت هو الإسلام؛ ولذا يقول محمد أسد النمساوي الأصل: "يعتبر الإسلام من دون سائر الأديان السامية جميعاً روح الإنسان ناحية واحدة من شخصية لا ظاهرة مستقلة، ومن ثم فإن نمو الإنسان الروحي، في نظر الإسلام مرتبط ارتباطاً لا انفصام له بجميع نواحي طبيعته الأخرى، إن الدوافع الجسمانية جزء متمم لطبيعته فهي ليست نتيجة أيّ "خطيئة أولى" - ذلك المفهوم الغريب عن تعاليم الإسلام - بل قوى إيجابية وهبها الله للإنسان، فيجب أن يتقبلها وأن يفيد منها بحكمة على أنها كذلك، ومن هنا فإن مشكلة الإنسان ليست في كيف يكتب مطالب جسده، بل كيف يوفق بينها وبين مطالب روحه بطريقة تجعل الحياة مترعة وصالحة.

إن جذور هذا التوكيد الإيجابي للحياة الإنسانية إنما توجد في النظرة الإسلامية القائلة بأن الإنسان مفلح على الخير، بخلاف الفكرة المسيحية القائلة بأن الإنسان يولد مكسواً "بالخطيئة الأولى" أو العقيدة الهندوسية القائلة بأنه منحط ونجس أصلاً، ويجب أن يتعثر عبر سلسلة طويلة من التناسخ نحو

91 - المرجع السابق، ص 27.

92 - الدين والعلم، ص 173 نقلاً عن دراسات في الأديان، ص 77.

الكمال، بخلاف القرآن الكريم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي في حالة من الطهارة لا يمكن أن تفسد إلا عن طريق السلوك السيئ من بعد ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (93)(94).

### المطلب الثالث: الإتقان:

تعريفه: قال ابن منظور: أتقن الشيء أحكمه وإتقانه إحكامه، والإتقان الإحكام للأشياء، وفي التنزيل العزيز ﴿صُنِعَ اللَّهُ لِدَيْهِ أَنْتَقْنُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (95). ورجل تَقِنٌ متقن للأشياء حاذق، ورجل تقن وهو الحاضر المنطق والجواب، قال أبو منصور: الأصل في التقن ابن تقن هذا "إشارة إلى رجل ممن مضى"، ثم قيل لكل حاذق بالأشياء تقن، ومنه يقال أتقن فلان عمله إذ أحكمه، وفي ترتيب القاموس: أتقن الأمر أحكمه، والتقن بالكسر الطبيعة، والرجل الحاذق (96).

ونسب إلى الأحنف قوله:

وما عليك أن تكون أزرقاً إذا تولى عقد شيء أو ثقا (97)

ويحسن الاستشهاد في مثل هذا الموضع بقول علي رضي الله عنه: "الناس أبناء ما يحسنون"، ويقول: "قيمة كل امرئ ما يحسنه".

ويقول الشاعر

كن ابن من شئت واكتسب أدباً يغنيك محموده عن النسب (98)

فلما تأدبوا بأدب القرآن تغيرت معاييرهم ومقاييسهم فأصبح العربي الذي كان لا يعدل بالنسب والحسب شيئاً يعتبر الإحسان واكتساب الآداب والإتقان هي القيمة الحقيقية للإنسان. إذاً الإتقان هو الإحكام، سواء كان في الأمور المادية أو في الأشياء المعنوية، ومادام أنه كذلك فلا

93- سورة التين، الآيات: 4-6.

94- محمد أسد، الطريق إلى الإسلام، ترجمه عفيف البعلبكي، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة التاسعة، 1418هـ. ص 152.

95- سورة النمل، الآية: 88.

96- محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي، لسان العرب، دار صادر بيروت، ط 1، 73/13. وترتيب القاموس المحيط، مادة تقن 1/1527.

97- إسماعيل بن محمد العجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، تحقيق: أحمد الفلاس، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1/286.

98- عبد الروؤف المناوي، فيض القدير، المكتبة التجارية، مصر، ط 1، 1356هـ، 4/110.

غنى عنه في أيّ أمر مادي أو معنوي، ولا تقوم حضارة ولا تزدهر صناعة إلا به، وتولي المؤسسات الصناعية والعلمية هذا الأمر عناية بالغة، ولذا وضعت المواصفات العالمية المتعارف عليها لكل منتج سواء كان منتجاً فكرياً كالمناهج التعليمية، أو كان منتجاً مادياً كسائر المصنوعات، وأصبحت هذه المواصفات من الشهرة بمكان بحيث إن المنتجين والمصنعين يحرصون على أن تتوافق منتجاتهم مع هذه المواصفات، ويسجلون على منتجاتهم المواصفات التي تم تطبيقها فيه.

والإسلام وهو الرسالة الخاتمة لم يهمل هذا الجانب العلمي المؤثر، فجاءت النصوص الشرعية مقررّة هذا الأمر، وداعية إليه، ومخبرة أن الله قد أحسن وأتقن خلق مصنوعاته، وندب البشر إلى إتقان أعمالهم، وبين أنه يجب ذلك من عباده، فقال سبحانه وتعالى مخبراً عن فعله: ﴿صُنِعَ اللَّهُ لِدَيْهِ أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾<sup>(99)</sup>. قال ابن عباس رضي الله عنه في معنى الآية: أحكم كل شيء، وقال مجاهد قوله: ﴿الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ قال: أوثق كل شيء وسوى. وقريباً من هذا المعنى نقل عن قتادة رحمه الله<sup>(100)</sup> وقال ابن كثير رحمه الله: "أي أتقن كل ما خلق وأودع فيه من الحكمة ما أودع"<sup>(101)</sup>.

وقال ابن القيم رحمه الله في معرض بيان التناسب بين شرعه وخلقته، وأن الله كما خلق خلقه بغاية الإتقان والإحكام، فكذلك شرعه في غاية التناسب والحكمة فقال: "إن من شَرَعَ هذه العقوبات ورتبها على أسبابها جنساً وقدرها فهو عالم الغيب والشهادة، وأحكم الحاكمين وأعلم العالمين، ومن أحاط بكل شيء علماً، وعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، وأحاط علمه بوجوه المصالح دقيقة وجليلها وخفيها وظاهرها ما يمكن اطلاع البشر عليه وما لا يمكنهم، وليست هذه التخصيصات والتقديرية خارجة عن وجوه الحكم والغايات المحمودة، كما أن التخصيصات والتقديرية الواقعة في خلقه كذلك، فهذا في خلقه وذاك في أمره، ومصدرهما جميعاً عن كمال علمه وحكمته ووضع كل شيء في موضعه الذي لا يليق به سواه ولا يتقاضى إلا إياه، كما وضع قوة البصر والنور للباصر في العين، وقوة السمع في الأذن، وقوة الشم في الأنف، وقوة النطق في اللسان والشفيتين، وقوة البطش في اليد، وقوة المشي في الرجل، وخصّ كل حيوان وغيره بما يليق به ويحسن أن يعطاه من أعضائه وهيئاته وصفاته وقدره،

99- سورة النمل، الآية: 88.

100- جامع البيان، 20/ 21.

101- تفسير القرآن العظيم، 3/ 379.

فشمّل إتقانه وإحكامه لكل ما شمله خلقه، كما قال تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾<sup>(102)</sup>. وإذا كان سبحانه قد أتقن خلقه غاية الإتقان، وأحكمه غاية الإحكام، فلأن يكون أمره في غاية الإتقان والإحكام أولى وأحرى، ومن لم يعرف ذلك مفصلاً لم يسعه أن ينكره مجماً<sup>(103)</sup>.

وقد ندب النبي صلى الله عليه وسلم إلى إتقان العمل وحثّ عليه، ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله قال: "إن الله عز وجل يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه"<sup>(104)</sup>. ولما خسفت الشمس في اليوم الذي مات فيه إبراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم فقال الناس هذا لموت إبراهيم! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يخسف لموت أحد ولا لحياته" ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجة في اللبنة بين اللبنة فأمّر أن تسد فقال: "إن العبد إذا عمل عملاً أحب الله أن يتقنه"<sup>(105)</sup>. فهذه فرجة في اللبنة في داخل القبر، لا تضر الميت ولا تنفعه، ومع ذلك لم يقرّهم النبي صلى الله عليه وسلم على تركها دون أن تغلق، وأمر أن تأخذ حقها من الإتقان، ولما سأله الصحابة رضوان الله عليهم هل تنفع الميت أو تضره؟ قال لهم ما قال.

وقال المناوي رحمه الله عند شرحه لهذا الحديث: "إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم أيها المؤمنون عملاً أن يتقنه أي يحكمه. كما جاء مصرحاً به في رواية العسكري، فعلى الصانع الذي استعمله الله في الصور والآلات والعدد مثلاً أن يعمل بما علمه الله عمل إتقان وإحسانٍ بقصد نفع خلق الله الذي استعمله في ذلك، ولا يعمل على نية أنه إن لم يعمل ضاع، ولا على مقدار الأجرة، بل على حسب إتقان ما تقتضيه الصنعة، كما ذكر أن صانعا عمل عملاً تجاوز فيه ودفعه لصاحبه فلم ينم ليلته كراهة أن يظهر من عمله عملاً غير متقن فشرع في عمل بدلاً منه حتى أتقن ما تعطيه الصنعة، ثم غدا به لصاحبه فأخذ الأول وأعطاه الثاني فشكره، فقال لم أعمل لأجلك بل قضاء لحق الصنعة كراهة أن يظهر من عملي عمل غير

102 - سورة النمل، الآية: 88.

103 - ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، 1973م، 2/120.

104 - أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله، دار الحرمين، القاهرة، 1415هـ، 1/275، وأحمد بن علي أبو يعلى الموصلي، مسند أبي يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون، دمشق، ط1، 1404هـ، 7/349، وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإبان، تحقيق: محمد السعيد بسبوني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1410هـ، 4/334، وعلي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، دار الريان، بيروت، 1407هـ، 4/98، وانظر: كشف الخفاء، 1/286.

105 - الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل 1404هـ، 24/306.

متقن، فمتى قصر الصانع في العمل لنقص الأجرة فقد كفر ما علمه الله، وربما سلب الإتيان" (106).  
وبهذا المطلب (الإتيان) نكون قد أتينا على نهاية هذا المبحث المتعلق بالعلم وما يؤول إليه  
ويعتمد عليه، وسيتجه البحث في المبحث التالي وجهة أخرى تعتبر تامة له من حيث الجوهر، وإن كانت  
مغايرة له من حيث التفاصيل.

\*\*\*